الأسطورة والشعر

د. كاملي بلحاج[1]

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن المهتمين بالأسطورة و دارسيها لم يتوصلوا بعد إلى اعتماد تعريف جامع مانع لها يمكنه الإسهام في توضيح بعض المسائل المتعلقة بطبيعتها و علاقتها بغيرها من الأنساق التي قد تتداخل معها في الكثير من الجوانب كالشعر مثلا .

ولعل صعوبة الوصول إلى هذا التعريف الجامع المانع هو الذي جعل "سئلت أوشسطين" يقول عندما سئل عن ماهية الأسطورة ((إنني أعرف جيدا ما هي، بشرط ألاّ يسألني أحد عنها، ولكن إذا ما سئلت، وأردت الجواب، فسوف يعتريني التلكؤ))1. و قد أشار إرنست كاسيرر كذلك إلى هذه الصعوبة فذكر أن المشكلة لا تكمن في نقص المادة بل في وفرتها وتعدد مصادرها، فقد اشترك الأدباء والفلاسفة وعلماء الأنثربولوجيا والاثنولوجيا والسيكولوجيا وعلم الاجتماع في هذه الدراسات2 ، كلّ من وجهة نظره واختصاصه.

ليس الهدف في هذا المقام الوقوف عند هذه الآراء و وجهات النظر، لأن ذلك يستلزم جهدا كبيرا ، ليس هذا موطنه، و إنما نريد سبر أغوار مواطن التلاقي والاختلاف بين الشعر والأسطورة ، وهل الشعر هو فعلا كما قيل ((السؤول المباشر للأسطورة وابنها المدعي))؟3

إن علاقة الشعر بالأسطورة علاقة قديمة تشهد لها العديد من المخلفات الفنية كالملاحم البابلية والإغريقية والفنيقية التي أجمع مؤرخوها على أن معتقداتهم الأسطورية كانت المضمون الوحيد لأقدم صور التأليف الشعري4 عندهم .

و الإجماع نفسه ينطبق على ملحمة جلجامش والإلياذة والأوديسة التي استقت موضوعاتها من تراث إنساني عريق امتزجت فيه المعتقدات بالأساطير والحقائق بالخيال.

وليس من المستبعد – كما تؤكد ذلك بعض الدراسات الحديثة – أن تكون بذور الشعر الملحمي قد جاءت من التراتيل والابتهالات الدينية التي كان يؤديها الكهنة وسدنة المعابد، أو من تلك الأشعار الشعبية التي كان يرويها المنشدون والمدّاحون للناس في المحافل والمناسبات حول تاريخ الوقائع والأساطير التي تصوّر بطولات أسلافهم . وقد يعود الفضل إلى هوميروس في جمع هذا التراث وتنسيق عناصره في شكل شعري متكامل قبل إنه ((قمة الأعمال الأسطورية في إطارها الأدبي))5 ، وإلى غيره من المسرحيين اليونانيين المعروفين كأسخيلوس، وسوفوكليس ويوريبيدس الذين وظفوا هذا التراث وحافظوا عليه من الاندثار.

لا أحد ينكر أن الشعر تجربة روحية وجمالية تتصل بأعمق مكونات الأمة ومشاعرها، وتستخدم من اللغة أقرب ألفاظها وكلماتها إلى الحس، وأكثرها قدرة على الترميز والإشعاع بهذه المكونات. وهذه النظرة لا تختلف في اعتقادنا عن النظرة التي نرى في الأسطورة شكلا من أشكال التعبير العذري عن التجربة الإنسانية في مغامرتها الأولى مع الطبيعة والحياة . "ومن ثمّ فإن كليهما (الشعر و الأسطورة) متصل بالتجربة الإنسانية ، حافل

---

[1] – أستاذ محاضر – قسم اللغة العربية و آدابها – كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة سيدي بلعباس – الجزائر.

بمستطوقها وأسرارها ، معبّر عن مكوناتها وبواعثها النفسية والجمالية. ومن ثمّ أيضا ، يمكن القول أن عودة الشاعر المعاصر إلى استخدام الأسطورة في الشعر هو، في واقع الأمر، عودة حقيقية إلى منابع التجربة الإنسانية، ومحاولة التعبير عن امتداداتها في وقتنا الراهن بوسائل عذراء ، لم يمسسها الاستعمال اليومي فيمحي عنها صفة القداسة و السحر .

وربما كانت الأسطورة من هذه الناحية بالذات ، في زمانها ، أعمق الأشكال وأكثرها استجابة لحاجات الإنسان في تلك المرحلة . فهي من حيث الشكل قصة، تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وشخصيات وعقدة، و كثيرا ما تأتي في قالب شعري يساعد على روايتها وتداولها في المناسبات الدينية. أما من حيث التأثير فهي تتمتع بقداسة كبيرة وسلطة عالية على عقول الناس ، و هي سلطة تضاهي سلطة العلم في العصر الحديث، أضف إلى ذلك أنها ((ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان))6. ثم كونها الوعاء الذي تفاعل فيه السحر بالدين ، والشعر بالطقوس، والأحلام بالأوهام .

بهذا الخليط من الأفكار والتصورات والخيال الواسع والظلال السحرية للكلمات استطاعت الأسطورة أن تعبر عن قلق الإنسان وتساؤلاته، فكانت أول محاولة لفهم قوى الطبيعة والسيطرة عليها ولو بطريقة وهمية وخيالية، لكنها كانت على درجة بالغة من الأهمية في حياة الإنسان، يقول كلود ليفي شتراوس في هذا الصدد إن الأسطورة ((لا تنسب لها من النجاح في إعطاء الإنسان قوة مادية أشد للسيطرة على البيئة ، لكنها مع ذلك تعطي الإنسان وهم القدرة على فهم الكون ، و أنه فعلا يفهم الكون وهذا بالغ الأهمية. لكنه مجرد وهم بالطبع))7. و هنا نلتقي الأسطورة بالشعر من حيث أنهما يوهمان الإنسان بامتلاك السلطة والقدرة على زعزعة الأشياء من مكانها، ذلك أن اللغة عند مبدعي الأساطير والشعر ليس أداة اتصال فحسب و إنما هي أداة سحرية للسيطرة على الأشياء والكائنات .

بمعنى آخر إن قوة هؤلاء المبدعين تكمن أولا و قبل كل شيء في اللغة التي يتحدثون بها ، فهي لغة تختلف عن اللغة العادية من حيث الكثافة و الإيحاء والقدرة على الترميز والإثارة ، فهي تمتلك شحنة من السحر الناتج عن الاحساسات والعواطف الزائدة ما يجعلها تقرع الصمت وتبث الحياة في الساكن، بل و أكثر من ذلك تتفث في الإنسان ما يعطيه القدرة على استدعاء الأشياء و امتلاكها .

يقول مارتن هيدجر MARTIN HEIDEGGER (1889 –1976) في هذا الشأن ((اللغة هي التي تفتح لنا العالم، لأنها وحدها التي تعطينا إمكان الإقامة بالقرب من موجود منفتح من قبل...وكل ما هو كائن لا يمكن أن يكون إلا في (معهد اللغة)...اللغة تقول الوجود، كما يقول القاضي القانون. واللغة الصحيحة هي خصوصا تلك التي ينطق بها الشاعر، بكلامه الحاقل. أما الكلام الزائف فهو كلام المحادثات اليومية .إن هذا الكلام سقوط ، وانهيار))8. و من ثمّ كانت مهمة الشعراء ومنتج الأساطير مهمة صعبة وشاقة، لأنها تتطلب لغة خاصة قادرة على اختزال الفعل الإنساني.

وثانيا في طريقة استعمال هذه اللغة، وهي طريقة ــ كما حدثنا عنها بعض الدارسين ــ سحرية وغريبة في الوقت ذاته، يصعب تقنينها أو القبض عليها، بل ووصفها في بعض الأحيان. لأن كل قصيدة أو أسطورة إلا ولها حياتها الخاصة التي هي مصدر قوتها وبقائها وجمالها. وهذا يعني بعبارة أخرى أن كل قصيدة أو أسطورة هي بمثابة مولود جديد يحمل جيناته وسماته التي تحفظ له وجوده وتجعله مستقلا عن الآخرين .

والغريب في هذه اللغة ، المستعملة بهذه الطريقة، أنه بإمكانها هدم كل ما هو أمامها من أفكار وتصورات مؤسسة، بفعل تأثيرها السحري واستخدامها المفاجئ غير المكرور، وهنا يكمن السّر الذي تتمتّع به الأسطورة والشعر على حد سواء . و ربما لهذا السبب خاف أفلاطون في كتابه الجمهورية من الشعراء ودعا إلى ضرورة استبعادهم من الجمهورية الفاضلة التي تقوم على العقل ، حتى لا يستبدون بها ويشبابها، لأن السّماح بالشعر يعني فتح الطريق أمام الأسطورة و الخيال ، و هما عنصران لا يريد أفلاطون أن تقوم عليهما جمهوريته.

وإذا كانت اللغة هي مفتاح العالم على حد تعبير هيدجر أو ((فعل خلق للوجود وإعادة تشكيله تجريديا))9 على حد تعبيره ، فإنها لن تكون كذلك إلا في الأسطورة والشعر بوصفهما أرقى الأشكال ترميزا وإيحاء ، وكونهما رسالة سرمدية موجهة للإنسان ، تبين عن حقائق خالدة وتؤسس لصلة عميقة بين الماضي والحاضر والمستقبل ، أو باختصار بين الحياة والموت .

فالأسطورة مثلا لا تروي أحداثا جرت في الماضي والتهت، وإنما تروي كذلك أحداثا لا تتحول إلى ماض أبدا . فالفعل الخلق مثلا الذي تمّ في الأزمنة المقدسة ، يتجدد في كل عام و يجدد معه الكون وحياة الإنسان10 . و إلى الخصب (تموز) الذي قتل ثم بعث إلى الحياة موجود على الدوام في دورة الطبيعة وتتابع الفصول. وصراع (بعل) مع الوحش، هو صراع دائم بين قوى الخير و قوى الشر . وحتى تلك الأساطير التي تروي أحداثا تاريخية مضت كأسطورة الطوفان11 ــ أو (الدمار الشامل) كما يحلو للبعض أن يسميها، فهي في الواقع لا تخفي اهتمامها بالمستقبل ، فالطوفان الذي دمّر الأرض و خرّب من حولها ، تحذير دائم من غضب الآلهة و انتقامها قد يصيب الإنسان في أي وقت من الأوقات.

من هنا يمكننا القول بأن همّ الأسطورة والشعر لا يكمن في التعبير عن الأشياء العارضة ، المنتهية في الزمان والمكان، و إنما في التعبير عن القيم الخالدة و النماذج الكبرى في حياة البشر ، وقد أشار كارل يونغ إلى هذه الفكرة حين تحدث عن الأساطير بوصفها أكثر نتاج البشرية البدائية نضجا و تعبيرا عن هذه النماذج، والشعر العظيم عنده يستمد قوته من حياة النوع البشري12، تلك الحياة التي تبدو بعيدة لكنها تختفي في ذات كل واحد منا ، تظهر من حين إلى آخر في أحلامنا الأدبية و إبداعاتنا الفنية بل و في أحلامنا الليلية.

ومعنى هذا أن كل من الشاعر وصانع الأسطورة يستمد خبراته ورموزه من الحياة النفسية والفكرية للنوع البشري . والمعروف عن هذه الحياة -كما يصفها علماء النفس و الأنثروبولوجيا – أنها غنية بالصور والخيالات والرموز، و هي تضرب في أرض خصبة ، عميقة الجذور والمتاهات والأغوار. وبقدر ما يكون غوص الفنان في هذه الأغوار والمتاهات، يكون أصيلا وقريبا من طبيعة الفن ، و من طبيعة هذه النماذج التي تحدث عنها يونغ ، و التي يعتبرها نورثروب فراي أساس كل أدب رفيع .

من الواضح أن الفنانين يتفاوتون في مقدار هذا الغوص ، فمنهم من يصل إلى الأعماق و منهم من يبقى على السطح ، كل على قدر موهبته و عبقريته بل و استعداده للغوص . وقد لا يكون النجاح حليفا في كل مرة، فهناك من الفنانين من بلغ هذه الأعماق في بعض أعماله الفنية، وخاب في بعضها الآخر، و العكس. لأن ذلك مطلب عسير يتطلب استعدادا روحيا ونفسيا خاصا ، وهو ما لا يتوفر دائما ، ولنا في كبار الفنانين والشعراء الصوفيين والرمزيين من أمثال محي الدين بن عربي و ابن الفارض و أبو العلاء المعري و بودلير (1821-1867) ورامبو(1845-1891) و مالارميه(1842-1898) خير مثال على ذلك .

يبدو أن التقارب الشديد بين الأسطورة والشعر من حيث اللغة و الوظيفة، كما رأينا سابقا،ناتج عن الأرضية الواحدة أو المتشابهة التي ينطلق منها كل من الشعراء و مبدع الأساطير.فهما ((يعيشان في عالم واحد ، ولديهما موهبة أساسية واحدة هي القدرة على التشخيص ، ولا يستطيعان أن يتأملا شيئا دون أن يمنحاه حياة داخلية ، وشكلا إنسانيا))13متميزا ، وكأنهما يلقنان في الأشياء من أرواحهما فيهبونها القدرة على الإفصاح كما يفعل الساحر . و نعتقد أنه بغير هذا التلقح أو البقية من السحر في الأسطورة والشعر ، فإنهما يكفان عن أن يكونا فنا عظيما ، لأن من طبيعة الفن الأصلية أن يكون فيه شيئا من السحر و إلا أصبح شيئا عاديا . و بقدر ما يشيع هذا السحر في العمل الفني ، تكون عظمته وقيمته، بل وتأثيره في النفوس والأرواح. وربما هذا ما جعل بعضهم ، كما أشرنا سابقا ، يربط بين الفن والسحر ربطا قويا .

إن ما يربط الشاعر المعاصر بالأساطير والتراث الشعبي القديم عموما ، هو تلك السمات الفنية التي تتمتع بها هذه الأساطير و منها القدرة على التشخيص و التمثيل ، ومنح الحياة للأشياء الجامدة ، واستخدامها الظلال السحرية للكلمات و الصور البيانية القادرة على الإحاطة والكشف، أضف إلى ذلك هذه الطاقة الخيالية الجامحة ، القادرة على ارتياد عالم الموت والميتافيزيقا. 14

والأسطورة إلى جانب هذا ((ضرب من الشعر))15 تبقى الحقيقة التي تعلن عنها بطريقتها الخاصة التي هي فوق مستوى التعبير اللغوي المعتاد على حد تعبير كلود ليفي ستراوس16 فهي ، بعبارة أوضح ، ذات طبيعة لغوية خاصة لا نجدها في تعبير لغوي آخر ، سوى الشعر ، و أعني التعبير المجازي عن الحياة و الوجود .فهذه المجازيّ في الرؤية والتعبير هي القاسم المشترك بين الأسطورة و الشعر .

و هذا شبيه بما أشار إليه إرنست كاسيرر Ernst Cassirer (1874-1945) حينما رأى أن الأسطورة تتضمن عنصرا من الخلق وهي ذات قرابة وثيقة بالشعر ، لكونهما شكلا رمزيا أصليا ، وهي ليست لغة استطرادية كشيفة التصوير ، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، بل هي أشبه بلغة الأحلام عند فرويد. و يذهب كاسيرر إلى أبعد من ذلك حينما يتبنى الرأي القائل بأن الشعر الحديث تحدّر من الأسطورة بعد عمليات من التطور البطيء ، و أن عقل الشاعر ما يزال أساسا عقل صانع للأساطير17.

قد ينطبق هذا الافتراض على القصائد والملاحم الشعرية القديمة، العربية منها أو الأجنبية، وكيف أنها انحدرت من تراث أسطوري وشفاهي قديم .لكنه لا ينطبق على الشعر كلّه . و من ثمّ فالمسألة ليست مسألة تطور أو انتقال من منهج عقلي إلى منهج رمزي ،كما يعتقد البعض18 ، بقدر ما هي مسألة إبداع و طبيعة فالتشابه الحاصل بين الشعر والأسطورة يعود ،في رأينا، إلى الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهما لغة وخيالا وأداة ورؤية .

الإحالات:

1 ــ ك.ك.رالفين : الأسطورة ، ترجمة جعفر صادق الخليلي منشورات عويدات بيروت (سلسلة زدني علما) ط1 1981
2 ــ إرنست كاسيرر : الدولة و الأسطورة ، ترجمة أحمد حمدي محمود الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1975
3 ــ فراس السوّاح : الأسطورة و المعنى دراسات في الميثولوجيا و الديانات المشرقية ، دار علاء الدين دمشق ط1 1997
4 ــ أحمد كمال زكي : الأساطير دراسة حضارية مقارنة دار العودة بيروت ط2 1979
5 ــ فراس السوّاح : الأسطورة و المعنى دراسات في الميثولوجيا و الديانات المشرقية
6 ــ الأسطورة و المعنى ، ترجمة: صبحي حديدي الدار البيضاء 1986
7 ــ عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ط1 1984

8 ــ محمد الزايد : المعنى و العدم بحث في فلسفة المعنى ، منشورات عويدات بيروت (سلسلة زدني علما)ط1 1975

9 ــ ميرسيا إلياد : أسطورة العود الأبدي ترجمة حسيب كاسوحة ، منشورات وزارة الثقافة دمشق 1990

10 ــ فراس السواح : مقامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة .سوريا. أرض الرافدين ، دار علاء الدين دمشق ط11 1996

11 ــ ت.ع. يونغ : علم النفس التحليلي ترجمة نهاد خياطة ، دار الحوار للنشر و التوزيع سوريا 1985

12 ــ أرنست كاسيرر :فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان ، ترجمة إحسان عباس ، دار الأندلس بيروت 1961

13 ــ وليد مشوح : الموت في الشعر العربي السوري المعاصر (1950ت1990) مطبعة اتحاد الكتاب العرب 1999

14 ــ ه. فرانكفورت و آخرون: ما قبل الفلسفة ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ط2 1980

15 ــ الأنانية البنيانية ، ترجمة حسن قبيسي ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط1 1995

16 ــ عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر (قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية) دار العودة بيروت ط3 1981

18 ــ ينظر: أرنست كاسيرر: فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان ، ترجمة إحسان عباس ص145 . لقراءة هذه الأشكال (الأسطورة ، الشعر ، الدين ، اللغة) يقترح عليها كاسيرر (فلسفة الأشكال الرمزية) التي هي برأيه لا تلغي القراءات السابقة و لكنها تكملها ، و تبقي الأهمية الأساسية للوظيفة التي تقوم بها الأشكال الرمزية.

19 ــ ينظر: عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر (قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية) دار العودة بيروت ط3 1981 ص224